البكاءون والزاهدون

ماذا تقول لربك غدًا

عبد الرحمن بكر

دار الروضة

دار الروضة



Dar El-Rawdah.
2Darb El-Atrrak. El-Azhar

رقم الإيداع ٨٣٠٥ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977 - 5481 - 52 - x



ماذا تقول لربك غدا

الحمد لله لا إله سواه فاضت نعمه علينا وتمام النعمة أن يرحمنا يوم نلقاه باكين متضرعين نحمل ذنوبنا وأوزارنا ثقيلة تحني ظهورنا ونحن سائرين في بحور الندم وقد تساقط لحم وجوهنا خجلا من كثرة ما عصيناه.

والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ الذي أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الحق وسراجا منيرا فأتم رسالته وأكمل دعوته حتى وصل إلينا دين الله صافيا نقيا كما أنزل عليه لا تحريف فيه ولا تبديل.

أما بعد وقد وصلتنا رسالة الحق كاملة فتغلغلت في القلوب وملكتها زمانا حتى أتت علينا الدنيا بمفاتنها.. فغرنا غرورها وأضعفت عزائمنا.. ولكن هيهات فقد اقترب الأجل وانحنى الظهر وشاب الشعر وصرخ النذير .

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ (سورة الحديد: آية ١٦).

فما بقي أمامنا إلا أن نرفع أيدينا مستجيرين لاجئين إلى ربنا حيث لا ملجأ من الله إلا إليه.. !ونصرخ كما صرخ الفاروق عمر بن الخطاب قبلنا قائلين لأنفسنا ..." ماذا تقول لربك غدا "

عبد الرحمن بكر





الخشية من الله

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيـــم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمآ أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولــكن عذاب الله شديد ﴾ (سورة الحج ١،٢)

يا لها من آيات تزلزل القلوب، فكم ذرف الصحابة والسلف الصالح من دموع عندما سمعوها وكم ارتجفت أجسادهم رهبة وخشية من لقاء الله عز وجل وكم طمعوا في رحمته ورضاه ورغم أنهم كانوا هم العباد الزهاد، فقد أدركوا أن أعمالهم مهما كثرت وتضاعفت فلا نجاه إلا برحمة من الله.

فماذا نفعل نحن وقد شغلتنا الدنيا..؟

أفلا نقف مع أنفسنا وقفة، ونعقد مع أعمارنا صفقة، هناك بعيدا عن قطار الحياة السريع الذي يمر بلا توقف ولا يخرج منه المرء إلا صريع، ونتأمل ما فيه من آمال وأحلام وخداع وأوهام، لكي نتفكر وننظر إلى أعمالنا، وما نحن قادمون إليه من اقتراب آجالنا، فإلى أين المصير..؟ وقد تركنا خلفنا جبال الذنوب تتكاثر وترتفع، ورغم النذر لم نرتدع حتى كادت أن تقضي علينا خطايانا، وها هو الزمان يمر بنا ويتساقط من حولنا الأصدقاء ونفقد كل يوم خلا من الأخلاء، وتمتلئ القبور بأهلها، ولسان حالنا يقول: هذا كان معي بالأمس وذاك كان رفيق طريقي وهذا بنينا أحلامنا معا ورسمنا خطواتنا معا..

والآن تساقط الرفقاء وألقى جواد الدنيا الجامح فرسانه من فوق ظهره وتساقطت أحلامهم ولم يبقى سوى حسابهم، وهاهو كل يوم نعش يسير أمامنا، تلاحقه دموعنا





وبعد لحظات، تنتهى الفرص وتختفي الأوقات، ونفيق من الأحلام أمام حقيقة الموت وحياة الأموات، ورعب القبر وشبح الحساب، ونعيم الجنة وألم العذاب، ونرى أنفسنا فيمن سبقونا فنبكي أنفسنا قبلهم، وهاهم أمام حساب طويل، كل يفضي إلى ما قدم وقبضة القبر تنسي نعيم الدنيا، وتوقظ الغفلان إلى ما وقع فيه من بحر الندم..

﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ (الزمر آية ٤٧)

فحذار فما أصعبها من آيات تبيد عروش الظالمين، وتزل الفاجرين، وتجعل أحلامهم هباء منثورا، يظن الإنسان أن عمله مقبول عند الله، وعنده سيلقى ما يتمناه، وأنه من أهل الخير والصلاح ثم يأتي يوم القيامة وهو لا يدري أن عمله غير مقبول عند رب العرش العظيم، وأنه مردود عليه لأنه بلا إخلاص فيجد تلك الآية الرهيبة تزلزل كيانه.. وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فأي راحة وأى هناء يمكن أن يعيش فيه الإنسان بعد أن يقرأ هذه الآيات.

وها هو عمرو بن العاص ﷺ عندما كان على فراش الموت يلتقط أنفاسه الأخيرة دمعت عيناه وانطلق لسانه يقول: "اللهم أمرتنا فعصينا.. ونهيتنا فما انتهينا.. ولا يسعنا إلا عفوك يا أرحم الراحمين".

ثم وضع يده على موضع الغول من عنقه، ورفع طرفه مرة أخرى إلى السماء وقال:

اللهم.. لا قوى فأنتصر.. ولا برئ فاعتذر.. وما أنا بمستكبر.. وإنما مستغفر.. فاغفر لى يا غفار.. فاغفر لى يا غفار..





النفس تبكي علـى الدنيـا وقد علمت — أن السـلامة فيـها تـرك مـا فيــها
لا دار للمــرء بعــد المــوت يســكنها — إلا التــى كــان قبــل المــوت يبنيــها
فــإن بناهــا بخـير طــاب مســكنه — وإن بناهــا بشــر خــاب بانيــها
لا تركنـــن إلى الدنيــا ومـــا فيـــها — فــالموت لا شـــك مفنينــا ويفنيــها
واعمـل لـدار غـــدا رضــوان خازنـــها — والجـــار أحمــد والرحمــن ناشـــيها
قصورهــا ذهـــب والمســك طينتـــها — والزعفــران حشــيش نـــابت فيـــها

فكيف ننسى الموت وهو يطلبنا كل يـوم والقبر ينتظرنـا كمن أراد أن يفطر بعد صوم، يشتاق للقاء من أطاع ومن عصى، فقبضة القبر تنسي النعيم .. وليـت هـذا وكفـى، ولكن كل هذا لا يساوي لقاء رب الملـك والملكـوت، الحـي الـذي لا يمـوت، الـذي خلقنـا وسوانا وإذا أماتنا أحيانا، فهو الغفور الودود الكريم المقصود الملك المعبود القديم الوجود العميم الجود المتعالى عن الأمثـال والأشـكال والجـهات والحـدود الحـى العليـم السـميع البصير الذى لا يخفى عليه دبيب النملة السوداء فوق الصخرة الصماء فى الليالى الظلمـاء ويسمع حس الدود فى خلال العود ويرى جريان الماء فى باطن الجلمود وتـردد الأنفـاس فى الهبوط والصعود بمشيئته تصاريف الأقدار العالم بجميع الأسرار.

فنسأل الله العفو والعافية، والتوفيق فيما بقى مـن الأيـام الخاليـة وأن يـهدينا لمـا يحب ويرضى إنه جواد كريم.





القلب الخاشع

فإن الليالي والأيام تمر سراعا لكي تنهي الآجال..! ومآل المقيم في الدنيا إلى الزوال وآخر الصحة يؤول للاعتلال..؟ وقوافل أعمارنا قاربت الارتحال وعن دار العمل سيكون الانتقال، وها نحن نرى القبور بغيرنا تضرب لنا الأمثال..؟

فيا متعلقا بزخرف يزول بقائه كلمح البروق ومضيعا واجبات عليك وأيضا حقوق، تعصى الخلاق وتستحي من المخلوق..! غدا سترى أثر ذاك الفسوق فعنقك أبدا بسجن الردى مرهون ومخنوق، فابك على نفسك فإنك بالبكاء محقوق، فعجبا لمن رأى فعل الموت بصحبه، وأيقن أنه سيقضي يوما نحبه، وسكن الإيمان بالآخرة في قلبه، ونام غافلا على جنبه، ونسى جزائه على جرمه وذنبه، فيا عجبا لقلب عند ذكر الحق غير خاشع وقد نشبت فيه مخالب المطامع.

فيا من شيبه قد أتى.. هل ترى ما مضى من العمر راجع..؟

فاحذر من الدنيا واذرف على الذنب المدامع.. فإن الحساب شديد والطريق طويل شاسع.. لا ينجو فيه إلا من له عمل نافع..

﴿إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع﴾(الطور الآيات ٧،٨)

وبعد.. أما آن يا أخي المسلم أن تخشع قلوبنا لذكر الله وما نزل من الحق وقد علمنا أن الحياة بغير الله سراب..

﴿ يحسبه الظمآن مآء حتى إذا جآءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ (النور الآية ٣٩).



فلنغتنم ما بقي من حياتنا، ولنطهر قلوبنا، قبل أن نلقى ربنـا فـإن القلـب أسـرع تقلبا من القدر عند غليانه..! ولنحذر من نفوسنا

﴿وماَ أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربـــي غفـــور رحيم ﴾ (سورة يوسف آية ٥٣)

ولندرك أن قولنا لشهادة التوحيد (لا إله إلا الله) ليس مجرد كلمة نقولها لننجـو لكنها منهج حياة كامل، ملك قلوبنا فأصبح شغلنا الشاغل، نؤمن به ونعمل بكل ما أمرنا فيه ولنندم على ما فات منا ولنعترف أمام الله بذنوبنا وكما قال الشاعر:

إلهـــــي لا تعذبـــــني فـــــإني ... مقـــر بـــــالذي قـــد كـــان مـــني

ومـــــالى حيلـــــة إلا رجـــــائي ... لعفـــوك إن عفـــوت وحســـن ظنـــي

يظـــن النــــاس بـــي خـــيرا وإنـــي ... لشـــر الخلـــق إن لم تعـــف عـــني

وقد سئل أحد الصالحين عن توبته فقال:

فكرت يوما فى ذنوبـى، وفـى تقصيرى، وفـى ميعـادى، فرأيـت عمـرى ينقص وذنوبى تزيد، ومعادى يقرب، ونفســى علـى التوبـة لا تقبـل، فرأيـت بـلاءا لا تحملـه الجبال، فخرجت من بيتى، مفكرا فى ســوء حـالى، فمـررت بطبيـب وعليـه جمـع مـن الناس، يرفعون إليه القوارير، ويطلبون منه الوصفات،فوقفت معهم.. وقلت: يا شـيخ، هل عندك دواء الذنوب..؟ فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال: لو علم العاص مـن يعصـى لذاب قبل المعصية، فعدت إلى مـنزلى وقـد أثـر كلامـه فـى قلبـى، فلزمـت بـاب مـولاى إلى الآن.

وقد قال عمر بن الخطاب لعلى بن أبو طالب رضى الله عنهما:



عظني يا أبا الحسن..!

قال: لا تجعل يقينك شكا.. ولا علمك جهلا.. ولا ظنك حقا.. واعلم أنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت.. وقسمت فسويت.. ولبست فأبليت.

قال: صدقت يا أبا الحسن..

وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ﷺ قد فارق نعيم الدنيا وزهد فيها، ويروى أنه دخل يوما على أبيه فقال له: يا أمير المؤمنين ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقا لم تحيه وباطلا لم تمته..؟

فقال عمر بن عبد العزيز: أقعد يا بنى إن آباءك وأجدادك خدعوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إلى، وقد أقبل شرها وأدبر خيرها، ولكن أليس حسبى جميلا أن لا تطلع الشمس على فى يوم إلا أحييت فيه حق وأمت فيه باطلا حتى يأتينى الموت وأنا على ذلك..

وهكذا كان الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ﷺ لا يدع فرصة ليحاسب نفسه إلا ويحاسبها ولا يرى أحدا من التابعين إلا طلب منه الموعظة وقد رأى يوما "أبى حازم" وهو آخر من عاش من التابعين فقال له: عظنى..

فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك.. ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة.. فخذ به الآن.. وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة.. فدعه الآن.

وها هو قد قدم عليه "أبى حازم" يوما بعد أن ولى الخلافة فلم يعرفه، فقال له عمر بن عبد العزيز ﷺ: ادن منى.. فدنا منه وقال له: أأنت أمير المؤمنين..؟ فقال





عمر: نعم.. فقال أبى حازم: ألم تكن عندنا فى المدينة أميرا على المسلمين..؟ فكان مركبك وطيا، وثوبك نقيا، ووجهك بهيا، وطعامك شهيا، وقصرك مشيدا، وخدمك كثيرا، فما الذى غيرك وأنت أمير المؤمنين..؟!

فبكى عمر ثم قال: يا أبا حازم.. كيف لو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى، وقد سالت حدقتاى على وجنتي، ثم جف لسانى، وانشق بطنى، وجرت الديدان فى بدنى، لكنت أشد إنكارا منك يومك هذا، أعد على الحديث الذى حدثتنى به فى المدينة، فقال أبى حازم: يا أمير المؤمنين.. سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن بين أيديكم عقبة كؤودا مضرسة لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول"، فبكى بكاء طويلا حتى علا نحيبه.

وهكذا كان تعلقهم بالله وبما عنده من رحمة وفضل، وكان خوفهم منه عظيم لكن الخوف من الله يجعل المؤمن قويا على نفسه ويجعله يستصغر ما دون خالقه، وهكذا كان الصالحون.

وقد روى أنه عندما حج الخليفة المهدى دخل إلى مسجد الرسول ﷺ فانتفض الناس وقاموا له ولم يبق أحد لم يقم إلا ابن أبى ذئب وكان من كبار الزاهدين فقال له قائد الحرس: قم.. هذا أمير المؤمنين..!

فقال ابن أبى ذئب: إنما يقوم الناس لرب العالمين..!

فقال المهدى: دعه فلقد قامت كل شعرة فى رأسى..!!



وقد قال ذو النون المصرى: بينما أنا أطوف بالبيت إذ رأيت شابا عليــه جبــة مـن صوف وهو يتبختر ويقول: إلهى هذه خطوة من افتخــر بغـيرك وتعـزز بسـواك فكيـف يكون خطوة من ليس له محبوب سواك.. فقلت له: حبيبى ما الخبر؟ فقال لى: يــا عـم.. انظر إلى ذلك الشاب يتبختر عجبا لأنه عبدا لأمير مكة..

قال ذو النون: فتقدمت فإذا بشاب يسحب إزاره على الأرض عجبا ـ فخرا ـ فقلت له: يا فتى.. أنـت تتبخـتر لأنـك عبـد أمـير مكـة وهـذا الفقـير خلفـك وهـو عبـد ملـك السماوات والأرض.. تأخر حتى يتقدم فهو أحق بالتبختر منك.. فرأيت الشاب قد تأخر وتغير لونه وقال للفقير تقدم، فأنت والله أحق منى طوبى لمن كان مثلك، ثم قضى طوافـه ومضى منكس الرأس، وقد عملت ـ أثرت ـ فيه الكلمات، فرجع إلى سيده فاشــترى منـه نفسه وتصدق بكل ما يملك، ولبس جبة صوف وأقبل إلى البيت فى اليوم الثالث فلقينى، فقال لى: يا شيخ أترى الله يقبلنى بعد تلك الذنوب العظام، فقلت له أبشـر يـا حبيبـى.. فأنت حبيب الله، أما علمت أنه يدعوا المدبرين عنه، فكيف بالمقبلين، فاخلص النية فإنه يقبلك على ما كان منك..

فقال: يا عم.. طيبت قلبى بعد أن كاد يتصــدع فجـزاك الله مـن واعـظ خـيرا.. ثـم مضى، فلما كان فى اليوم السابع أتانى إنسان وقال لى: يا شيخ عظم الله أجرك فى الشاب التائب فإنه قد مات فقلت له: ألا ترنيه، فــأتى بـى فوجدتـه مسجى ووجهـه كدائـرة القمر، فسألت عن حاله، فقيل لى أنه قد دخل فى هذا المكان وغسـل يـده إلى عنقـه ولـزم المحراب يبكى على نفسه، فلما كان اليوم وجدناه ميتا.





قال ذو النون: فشهدت جنازته فلم يبق من مكة إلا قليل حتى حضروا جنازته.. فرأيته فى تلك الليلة فى المنام وهو يتبختر وهو يقول: شتان ما بين الخطوتين، فقلت: حبيبى ما فعل بك، فقرأ: إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار وتضيق عليك نفسك.

وكما قال داود الطائي وهو يوصي صديقه:

ما أخرج الله عبدا من ذل المعاصي إلى عز التقوى ..إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر. ثم قال: ويحك صم الدنيا واجعل الفطر موتك واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم، وارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، فمن خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب، واعلم يا أخي أن كل ما يشغلك عن ربك فهو مشئوم، واعلم أن أهل القبور إنما يفرحون بما يقدمون ويندمون على ما يخلفون، وأهل الدنيا يتقاتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبور يندمون.

وقيل له يوما: يا أبا سليمان لقد رضيت من الدنيا بالقليل: فقال:

أفلا أدلك على من رضي بأقل من ذلك..!؟

من رضي بالدنيا كلها عوضا عن الآخرة.

فيا من يرحل في كل يوم مرحلة، وكتابه قد حوى حتى الخردلة، ما ينتفع بالنذير وقد كثرت النذر، وتوالت عليه ضربات القدر،فأين من حصن الحصون المشيدة واحترس، وعمر الحدائق فبالغ وغرس، ونصب لنفسه سرير العز وجلس، وظن فى نفسه البقاء ولكن خاب الظن في النفس، وأزعجه هادم اللذات، وجاءه بحقيقة الممات،





فأنزله عن الفرس، وحمله إلى دار البلاء فانطمس، وتركه في ظلمة الظلمات ليلقى عقاب رب السماوات.

فكن أخي كيف شئت..! فبين يديك الحساب والزلزلة..ولابد من قبر يوما ستنزله، وجلدك الناعم لابد للديدان أن تأكله..، فيا عجبا من فتور مؤمن موقن بالجزاء والمسألة، ينام الليالى وينسى ربا سيسأله.

فكم أخرج الموت نفسا من دارها.. تبكيها عيون غدا ستلحق بها، وما ربك عنها بغافل، ومهما طال الزمان ستحملها المحافل. وإلى القبر غدا.. كلنا نازل،فماذا نقول لرب المنايا..؟ وبين يدينا جبال الخطايا، وأى دموع ستذرف عيون الندم، وقد صرنا بين ثرانا عدم، وها هو الإمام الشافعي رضي الله عنه وقد دخل عليه البعض في مرضه الذي مات فيه فقالوا له:

كيف أصبحت يا إمام..؟

فقال: أصبحت من الدنيا، راحلا، ولإخواني مفارقا، ولكأس المنية شاربا، ولسوء أعمالى ملاقيا، وعلى الله تعالى واردا، فلا أدرى روحي تصير إلى الجنة فأهنئها، أو إلى النار فأعزيها..؟

ثم بكى وقال:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظم ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

وكان أبو الحسن المزين يقول:





(الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة)

وكان أبو عبد الله البراثي يقول:

(كرمك أطمعنا سيدي في عفوك، وجودك أطمعنا في فضلك، وذنوبنا قد تؤيسنا من ذلك وتأبى قلوبنا لمعرفتها بك أن تقطع رجاءها منك، فتفضل أيها الكريم وجد بعفوك يا رحيم).

وقال: حملتنا المطامع على أسوأ المصانع، نذل لمن لا يقدر لنا على ضرر ولا على نفع، ونخضع لمن لا يملك لنا رزقا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا، فكيف أزعم أني أعرف ربي حق معرفته وأنا أصنع ذلك..؟ هيهات هيهات.

فما أعجب هؤلاء الذين تعلقت قلوبهم الطاهرة، بلقاء الله وبالحياة الآخرة، فما عاد لمباهج الدنيا عندهم نصيب، ..وخافوا يوما يكون المقام فيه بين يدي ربهم يوم العرض الأكبر ونهو أنفسهم عن الهوى وردوها عن غيها، وابعدوا عنها غرورها وطمعوا بأن تكون الجنة هي المأوى، لذلك فقد حاسبوا أنفسهم ولبسوا لباس التقوى، وعددوا نعم الله عليهم فما استطاعوا، و تذكروا جنايات أنفسهم وذنوبهم فزلزلوا، وشعروا بالخوف من الله ولكنهم تعلقوا بحبال الرجاء فما أوسع رحمته.

فالخوف والرجاء كالحرارة والبرودة يداوى أحدهما بالآخر "خوفا وطمعا".. "فيا إلهي سلطانك لا ملجأ منك إلا إليك.. إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها..! وإذا ذكرت رحمتك ارتدت لي روحي سبحانك إني أتيت أطباء عبادك ليداووني فكلهم دلوني عليك، فبؤس للقانطين من رحمتك..





وماذا نكون نحن وقد مضى ركب الصالحين وانقضى زمن المتقين..؟ فخير الزمان زمان رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه..، وها نحن في آخر الزمان فلننظر إلى السابقين من العباد والزهاد.. فها هو "وهيب بن الورد" شيخ العباد في زمانه، كان إذا فرغ من صلاته خر ساجداً ثم قال:

سبحان الذي لبس العز وقال به، سبحان الذي تعطف بالمجد، وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي المن والفضل، سبحان ذي العز والتكرم، سبحان ذي الطَول، أسألك بمعاقد عزك من عرشك، وبمنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك الأعظم، وجدك الأعلى وبكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أن تصلي على محمد وآل محمد.

وكان يقول في مجلسه: (عجباً للعالم كيف تُجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك، وقد علم أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات) ثم يُغشى عليه.

فها نحن أصبحنا في هذا الزمان نتفاخر بما لدينا من علم وقد غطانا الجهل أما هؤلاء العلماء المتقين فقد تمزقت قلوبهم من ثِقل الأمانة.. وأدركوا أنها عرضت قبلهم على السماوات والأرض.. فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان. فأى ثقل أكثر منها.. وقد ناءت بحملها الجبال والأرض والسماوات.

فها هو "أبو جعفر المحولي" يقول:

(حرامٌ على قلب محب للدنيا أن يسكنه الورع الخفي، وحرام على نفس عليها رياسة الناس أن تذوق حلاوة الآخرة، وحرام على كل عالم لم يعمل بعلمه أن يتخذه المتقون إماماً.





فيا إلهي أنت السميعُ لكل داعي يدعوك في وسط الليالي المظلمة، وإن غفل الكون عنه فأنت ربي تعلمه، خشعت قلوب الخاشعين لفيض عفوك يا كريم:

يـا مـن يجـب العبـد قبـل سـؤاله ... ويجـود للعـاصين بـالغفران
وإذا أتـاه الطـالبون لعفـوه ... سـتر القبيـح وجـاد بالإحسـان
يـا رب إن عظمـت ذنوبـى كثـيرة ... فلقـد علمـت بـأن عفـوك أعظـم
إن كـان لا يرجـوك إلا محسـن ... فبمـن يلـوذ ويسـتجير الآثـم
أدعـوك ربـى كمـا أمـرت تضرعـاً ... فـإذا رددت يـدى فمـن ذا يرحـم
مـا لى إليـك وسـيلة إلا الرضـا ... وعظيـم عفـوك ثـم إنـى مسـلم
أنـت الـذى تـهب الكثـير ... وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقـول هـل مـن تـائب مسـتغفر ... أو سـائل أقضـى لـه الحاجـات
الشمس والبدر مـن أنـوار حكمتـه ... والـبر والبحـر فيـض مـن عطايـاه
الطـير سـبحه والوحـش مجـده ... والمـوج كـبره والحـوت ناجـاه
والنمـل تحت الصخور الصم قدسـه ... والنحـل يـهتف حمـداً فـى خلايـاه
والنـاس يعصونـه جـهراً فيسـترهم ... والعبـد ينسـى وربـى ليـس ينسـاه
يـا مـن يحـار الفـهم فـى قدرتـك ... وتطلـب النفـس حمـى طـاعتك
تخفـى علـى النـاس سـنا طلعتـك ... وكـل مـا فـى الكـون مـن صنعتـك
سـبحان مـن أحيـا قلـوب عبـاده ... بلوائـح مـن فيـض نـور هـداه
فالعـارفون مشـاهدون لفضلـه ... مستأنسـون بذكرهـم إيـاه





وقد سئل إبراهيم الحربي يوما عن الغريب في زماننا فقال:

(الغريب في زماننا رجل صالح عاش بين قوم صالحين، إن أمر بمعروف آزروه، وإن نهى عن المنكر أعانوه، وإن احتاج إلى شيء من الدنيا أعطوه،... ثم ماتوا وتركوه..!.)

فالعيب فينا وليس في زماننا وكما قال الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا	وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب	ولو نطق الزمان بنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب	ويأكل بعضنا بعضا عيانا

فيا أخي المسلم: عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، ولا ترضى بها فإنها قليل وكما عرفت كيف كان مبتداك يجب أن تدرك أنه لابد من منتهاك، واستعد ليوم أنت فيه بين يدي الله، ترجو النجاة فاحسب للقائه ألف حساب وتوجه لخالق الأرض والسماوات بالدعاء قبل أن يأتي زمن العذاب، واجعل حياتك وقفا على طريق الاستقامة، فغدا لا تنفعك الندامة، فأنفاسك عليك تعد ورحالك يا صاح تشد والقبر ينتظر من لم يزدجر. وحذار فلقد جرت منا الدنيا مجرى الدم من العروق، وتملك حبها من نواصي قلوبنا، فبعنا آخرتنا الباقية بدنيانا الزائلة وما بقي لنا إلا الرجاء لرحمة رحمن السماوات والأرض ورحيمهما ومن يرحمنا سواك يا إلهي وأنت القائل:

﴿قل يعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ (سورة الزمر آية ٥٣).





وروى أن رجل كثير البكاء، فقيل له فى ذلك، فقال: أبكانى تذكـرى مـا جنيـت على نفسى حين لم أستح ممن شاهدنى وهـو يملـك عقوبتـى، فـأخرنى إلى يـوم العقوبـة الدائمة وأجلنى إلى يوم الحسرة الباقية، والله لو خيرت أيمـا أحـب إليـك، تحاسـب ثـم يؤمر بك إلى الجنة، أو يقال لك: كن ترابا؟ لاخترت أن أكون ترابا.

وقد أدرك السلف الصالح رضوان الله عليهم، عندمـا أتـت الدنيـا بـين يديـهم، أن الحياة الدنيا ما هي إلا لعـب ولهـو وزينـة وتفـاخر لا ينخـدع بـها عـاقل، وهـي متـاع الغرور، ولكن لابد للمرء أن ينظر في عواقب الأمر، ويستعين بالصـبر، ويتـأمل مصـيره النهائي، فيقبل على الطاعة ويغتنم النعم التى تفضل بها المولى العزيز عليـه، ولا يركـن إلى الدنيا، ولا يحدث نفسه بالبقاء فيها، ولا يتعلق منها بمـا لا يتعلـق بـه الغريـب في غير وطنه.

وقد قال أحد الصالحين: أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطـن: يـوم ولادتـه، ويوم موته، ويوم بعثه، لذلك قال الله تعالى:

﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾ (مريم آية ١٥)

وقال أحد الصالحين: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب في الجنة كما رغب في الغنى لفاز بهما جميعـا ولـو خـاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر سعد في الدارين جميعا.

وما أشد كلمات ابن مسعود على القلب حين قال:

اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن وفي مجالس الذكر وأوقات الخلـوة، فإن لم تجده في هذه المواطن.. فسل الله أن يمن عليك بقلب، فإنه لا قلب لك..



وكما قال علي بن أبي طالب ﷺ:

(ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل).

نموت وأيامنا تذهب ... ونلعب والموت لا يلعب

عجبت لذى لعب قد لهى ... عجبت ومالى لا أعجب

أيلهو ويلعب من نفسه ... تموت ومنزله يخرب

أرى الليل يطالبنا والنهار ... ولم أدر أيهما أطلب

أحاط الجديدان جمعا بنا ... وليس لنا منهما مهرب

وكل له مدة تنقص ... وكل له أثر يكتب

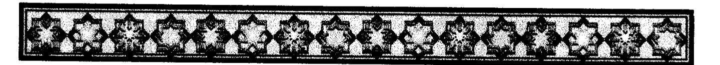
فهذا عمر بن عبد العزيز ﷺ عندما أتته الدنيا صاغرة بين يديه لم يغتر بها وأدرك الحكم والملك زائل وأنه لابد ملاق ملك الملوك سبحانه من لا يزول ملكه، فعاش حياته زاهدا فيما بين يديه طامعا فيما عند الله ومات وهو يردد (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين).

وهاهو الزاهد العابد "الربيع بن خثيم عندما قيل له: كيف أصبحتم..؟

فقال: ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.

وقد نظر يوما إلى تلاميذه وقال: أكثروا من ذكر الموت فهو غائبكم المرتقب، وإن الغائب إذا طالت غيبته قربت عودته، وترقبه ذويه، (وراح الشيخ يبكي وقد فاضت دموعه، ثم قال وقد أوشك صوته يحبس من البكاء) ماذا نصنع غدا..؟





﴿إذا دكت الأرض دكا دكا وجآء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ (الفجر الآية ٢١، ٢٢، ٢٣).

يا لها من قلوب حية لا تعرف غير ربها فأين نحن منها وقد أصبحت التوبة كلمة تجري على اللسان ولا تجد لها في القلب مكان، وصار أفضلنا مثل ذلك الرجل الذي جلس عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقال: استغفر الله.

فقال له علي كرم الله وجهه: ثكلتك أمك ألا تدرى ما الاستغفار..؟

إن الاستغفار اسم وقع على خمسة معان:

أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العودة إليه أبدا، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله وليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى اللحم الذي نبت من السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والخامس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: استغفر الله. وكما قال الشاعر:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت يبنيها

فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك مفنينا ويفنيها

واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها



وقد كان شاب على عهد رسول الله ﷺ يلبس ويتزين، فلما مات رسول الله ﷺ اجتهد الشاب في العبادة، فقيل له لو فعلت هذا في عهد رسول الله ﷺ لقرن عيناه بك..؟

فقال كان لي آمنان فمضى أحدهما ولم يبق إلا الآخر قال تعالى:

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقد مات ﷺ ولم يبق لي إلا الاستغفار والاجتهاد .

وكان عيسى عليه الصلاة والسلام إذا مر بالشباب يقول:

يا معشر الشباب كم من زرع هلك قبل أن يدرك الحصاد..!

وإذا مر بالشيوخ يقول: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا أدرك الحصاد..؟

وهاهو "أبو ذر" حبيب رسول الله ذلك الرجل الذي قال عنه الرسول الكريم ﷺ أن يمشي وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة وحده فأي شرف له بعد هذه الكلمات..

هاهو يمر في طريقه علي رجل أذنب ذنبا، والناس يسبون، فقال لهم:

أرأيتم لو كان أخوكم وقع في بئر أكنتم مستخرجيه..؟

قالوا: نعم.

قال: فاستغفروا لأخيكم واحمدوا الله الذي عافاكم.

فقالوا: أفلا تبغضه.

قال: لا إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.





والصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الذى قال عنه رسول الله ﷺ "أن قدمه فـى الجنة أثقل من جبل أحد" مر يوما في طريقه على حداد يصهر الحديد ويعالجـه، فنظر إلى الحديد والنار تذيبه فقرأ..

﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذآ ألقوا منها مكانا ضيقـا مقرنين دعوا هنالك ثبورا﴾ (سورة الفرقان الآيتان ١٢،١٣)

وقد ذكر أنه كان شاب على عهد رسول الله ﷺ يبكى عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت فذكر ذلـك للنبـى ﷺ، فأتـاه النبـى ﷺ فلمـا نظـر إليـه الشـاب، قـام فاعتنقه وخر ميتا، فقال النبى ﷺ:

"جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فلذ كبده، والذى نفسى بيده، لقد أعـاذه الله منها من رجا شيئا طلبه، ومن خاف شيئا هرب منه".

هكذا كانت نظرة الصالحين لكل ما يمر عليهم في دنياهم، كانوا يربطون كل شيء بآخرتهم وقد وضعوا نصب أعينهم ذلك اليوم الذي لا مفر منه يوم يحاسبنا خالقنـا عمـا أسرفنا في حياتنا الدنيا.

وقد قال معاذ بن جبل ﷺ لما حضرته الوفاة:

أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبا بالموت، مرحبا زائرا، مغب حبيـب جاء على فاقة، اللهم إنى كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلـم أنـى لم أكـن أحب الدنيا، ولا طول البقـاء فيـها لكـرى الأنـهار، ولا لغـرس الأشـجار، ولكـن لظمـأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء، بالركب عند حلق الذكر.



يا من تفرد بالبهاء وبالسنا ... فى عزه وله البقاء السرمد

يا من له وجب الكمال لذاته ... فأنت ترفع من تشاء وتسعد

ما فى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى سواك فيقصد

يا من له عنت الوجوه بأسرها ... ذلا وكل الكائنات توحد

أنت الإله الواحد الفرد الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

لما علمت بأن قلبى فارغ ... ممن سواك ملأته بهواك

وملأت كلى منك حتى لم أدع ... منى مكانا خاليا لسواك

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ... ويجود للعاصين بالغفران

وإذا أتاه الطالبون لعفوه ... ستر القبيح وجاد بالإحسان

أصبحت ضيف الله فى دار الرضا ... وعلى الكريم كرامة الضيفان

تعفوا الملوك عن النزيل بساحهم ... كيف النزول بساحة الرحمن

وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى ... تعفو وتصفح للعبيد الجانى

يا من إذا وقف المسىء ببابه ... ستر القبيح وجاد بالإحسان







المناجاة

عجبا لنفس أمست بالليل هاجعة، ونسيت أهوال يوم الواقعة، وما أصغت للمواعظ سامعة، ثم غدت في كرم الكريم طامعة.

وأى نفس خير من نفوس سبقتنا وبطاعة رب العزة غلبتنا، إنهم السلف الصالح رضي الله عنهم الذين تلذذوا بلذة العبادة وحلاوة المناجاة، وكانت سعادتهم في الساعات التي يقضونها بين يدي ربهم، باكين مستغفرين، نادمين على ما فاتهم من الذنوب، وما أخذت الدنيا منهم، وقد تورمت أقدامهم من طول الوقوف، وما فارقوا أوائل الصفوف، صلوا والناس نيام، واجتهدوا فى العبادة والقيام، وقد تعلقت القلوب برحمة غفار الذنوب، راجين رحمته وثوابه، مستعيذين من غضبه عذابه..

فهذا التابعي الجليل "عامر بن عبد الله التميمي" وقف يناجي ربه قائلا:

إلهي لقد خلقتني بأمرك، وأقمتني في بلايا هذه الدنيا بمشيئتك، ثم قلت لي: استمسك، فكيف أستمسك إن لم تمسكني بلطفك يا قوي يا متين..؟

إلهي إنك تعلم أنه لو كانت لى هذه الدنيا بما فيها ثم طلبت مني مرضاة لك لوهبتها لطالبها، فهب لي نفسي يا أرحم الراحمين.

إلهي إنك تعلم إني أحببتك حبا سهل علي كل مصيبة، ورضاني بكل قضاء فما أبالي مع حبي لك ما أصبحت عليه، وما أمسيت فيه.

فما أروعه من دعاء، يصعد إلى رب السماء، وخالق الأحياء جل شأنه وتعالى سلطانه، الخالق الذي ليس له شريك أو ولد المتفرد بالوحدانية، له كلنا قد عبد.



فيا من كتابه بالذنوب ملآن، استدرك أمـرك مـن الآن، وقـل لى متـى يـا صـاحبى الحيران، متى تتحدث الجيران..؟ بأنه قد تاب فلان، فيا مذنبا هذا وقت الإنابة، ويـا غافلا عن الحق وقد فتح بابه، تعرض للقبول فذاك وقـت الإجابـة، فقـد بكـى أبـوك آدم على ذنب واحد ثلثمائة سنة، فلماذا أنت جاحد..؟

فيا من يطمع أن يلحق بالعاملين وهو راقد فى مهاد الغافلين، فارق أوطان غفلتك، فلعلك تصحو من سكرتك، فوالله لو ذقت حلاوة الخلـوة بـالمولى، لما سـكنت إلى مؤانسـة الخلان، ولما احتجت بعدها لإنسان.

فيا إلهي كيف يحيط بـك عقـل أنـت خلقتـه..؟،
وكيـف يدركـك بصـر أنـت شـققته..؟،
وكيـف يدنـو منـك فكـر أنـت صنعتـه..؟،
وكيف يحصي الثناء عليك لسان أنـت أنطقتـه..؟

إلهي إذا تجمعت عظائم الجرائم كانت بجنب عفوك قليلة، فيا من خلقت القلوب بيديك دواء القلوب العليلة.. سـبق السـبق، فـأنت الأول ولعفـوك ربـي ذنوبـي أحمـل، فعجبـا للقلـوب كيـف استأنسـت بسـواك..؟، والأرواح كيـف اسـتقرت والأسـرار بنـور البصائر تراك..؟، والألسن كيف شكرت من لا يقدر على شيء لولاك..؟، والأقدام كيـف سعت إلى غير رضاك..؟، إلهي كيف يناجيك في الصلوات من يعصيك في الخلوات..؟، أم كيف يدعوك في الحاجات من ينساك عنـد الشـهوات..؟، وكيـف يـا ربـي تنـام العيـون وتغفل الجفون، وأنت تقول في كل ليلة:





هل من تائب، وهل من مستغفر، وهل من سائل، كيف كفت الأكف عن سؤالك وسيل الجود سائل، ومن رحمتك لم تنقطع عنا الرسائل، والخير والجود منك إلينا نازل، وكيف يباع الفاني بالباقي والأيام قلائل.. عجز عن وصفك الواصفون، واجتهد فى عبادتك المتقين، ومن سواك يرجون..؟، وأنت الرؤوف الحنون، أنت الذى خلقت الجنة ووسعت أراضيها، فاجعل لنا نصيبا فيها، فأنت حبيب كل غريب، نجنا يا ربنا من اليوم الرهيب..! ويل لنا.. ويل لنا.. إن لم نحاسب نفسنا، فنهارنا وليلنا تصارعا على فناء عمرنا.

حاسبت نفسى لم أجدنى صالحا	إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى على فلن أجد	فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعالى كلها	ويحى إذا من وقفة الديان
يا أيها الإخوان إنى راحل	مهما يطل عمرى فإنى فان
يا رب إن لم ترض إلا ذا تقى	من للمسىء المذنب الحيران





مع الزاهدين

إن للزهد رجال ندمت الدنيا كلما حاولت إغواءهم، وأنى لها بهم، فذهبها عندهم تراب، ونعيمها عندهم عذاب، وحريريها شوك إذا ما وضع على الأجساد، ولذيذ طعامها صدقة يخرجونها للعباد، لبسوا الخشن من الثياب، وافترشوا التراب، واستعدوا ليوم الحساب.

فهاهو الصحابي الجليل سلمان الفارسي الذي ترك نعيم الدنيا وملك فارس ليبحث عن الحقيقة، فهام على وجهه، لا يطلب إلا رب الكون ليعبده فتنقل من دين إلى دين حتى وجد رسول الله ﷺ فآمن على يديه وأدرك أنه الدين الحق الذي عاش يطلبه.. هاهو يلخص لنا ما أضحكه وما أبكاه فيقول:

(أضحكني ثلاث: ضحكت من مؤمل في الدنيا والموت يطلبه، وغافل ولا يغفل عنه، وضاحك بملء فيه لا يدري أمسخط ربه أم مرضيه..؟ وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمد ﷺ وصحبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة..؟)

وكان "عامر بن عبد الله" قد فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة، وكان إذا صلى العصر جلس وقد انتفخت ساقاه من طول القيام، فيقول:

يا نفس.. بهذا أمرت.. ولهذا خلقت.. يوشك أن يذهب العناء.

وكان يقول لنفسه:



يا مأوى كل سوء، فوعزة ربى، لأزحفن بك زحف البعير، ولئن استطعت أن لا يمس الأرض من زهمك لأفعلن، ثم يتلوى كما يتلوى الحب على المقلى، ثم يقوم فينادى:

اللهم إن النار قد منعتنى من النوم.. فاغفر لى..!!

وها هو التابعى الجليل "صلة بن أشيم" خرج فى غزوة إلى "كابل"، فنزل الناس عند منطقة تسمى "الغنيمة"، فصلوا ثم نام، فقام رجل وقد أراد أن يرى عمله الصالح الذى يحكون عنه لكى يتعلم منه، وانتظر حتى هدأت العيون، فوجده قد وثب فدخل غيطا قريبا من الجيش، فدخل على أثره، فرآه يتوضأ، ثم قام يصلى.

فجاء أسد حتى دنى منه، فصعد الرجل على الفور إلى شجرة ليراقب ماذا سيفعل "صلة بن أشيم" مع الأسد، فإذا به لم يلتفت، ولم يهتم به، حتى سجد، فظن الرجل أنه سيفترسه الآن، لكن ذلك لم يحدث، وجلس حتى أنهى صلاته وسلم، ثم قال:

أيها السبع.. اطلب الرزق فى مكان آخر، فانصرف السبع..

وإن له لزئيرا تتصدع منه الجبال، ومازال "صلة بن أشيم" يصلى حتى الصباح، ثم جلس فحمد الله بمحامد كثيرة، ثم قال:

اللهم إنى أسألك أن تجيرنى من النار، ومثلى لا يجترىء أن يسألك الجنة، ثم رجع فأصبح بين الجند كأنه بات معهم.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه:

يا فلان لقد أرقت الليلة مفكرا، قال: فيم يا أمير المؤمنين؟ قال: فى القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثالثه فى قبره، لاستوحشت فى قربه بعد طول الأنس بناحيته، ولئن رأيت ميتا يجول فيه الهوام، ويجرى فيه الصديد، ويخترقه الديدان



مع تغير الريح، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب، وقال: ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه، فقالت فاطمة: ويحك يا مزاحم أخرج هذا الرجل، وجاءت فاطمة فجعلت تصب على وجهه الماء، وتبكى حتى أفاق من غشيته فرآها تبكى، فقال: ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت: يا أمير المؤمنين رأيت مصرعك بين أيدينا، فذكرت مصرعك بين يدى الله، وتخليك من الدنيا، وفراقك لنا، فذلك الذى أبكانى.

قال: حسبك يا فاطمة، فقد أبلغت ثم مال فسقط، فضممته إلى وقلت:

يا أبى أنت أمير المؤمنين، ما نستطيع أن نكلمك بكل ما نجد لك فى قلوبنا، فلم يزل على حاله تلك حتى حضرت الصلاة، فصب على وجهه ماء، ثم نادته: الصلاة يا أمير المؤمنين، فانتبه فزعا.

وقد أرسل عمر بن عبد العزيز يوما إلى الحسن البصرى يطلب منه أن يجمع له أمر الدنيا والآخرة فى رسالة واحدة فأجابه:

إنما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما ونحن فى أضغاث أحلام .. من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن خاف سلم ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن علم عمل.

فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك.

فيا له من خليفة عادل أراد وجه الله، فبحث عن رضاه.

وها هى قوافل الصالحين تمر بنا لتعلمنا كيف نتعامل مع دنيانا..؟، وكيف نتفكر فى آخرتنا..؟



وقد أدى الصالحين دورا عظيما فى نصيحة الخلفاء والحكام، ومثال ذلك أن رجلا نادى الخليفة سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر:

يا سليمان اذكر يوم الأذان.. فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له:

وما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ (سورة الأعراف الآية ٤٤).

قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك؟ فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضا مع أرضه.

ومن عجائب ما ذكر من قصص قال قاسم بن عثمان الكوفى:

رأيت فى الطواف حول البيت رجلا فتقربت منه فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتى لم تقض.. فقلت له: مالك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك.. كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فأسرونا كلنا وقيدونا بنا لتضرب أعناقنا.

فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين فى كل باب جارية.. فقدم رجل منا فضربت عنقه فرأيت جارية فى يدها منديل قد هبطت إلى الأرض ثم بعد ذلك ضربت أعناق الستة وبقيت أنا وبقى باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقى استوهبنى بعض خواص الملك فوهبنى له فسمعتها تقول: بأى شىء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الأبواب.. فأنا يا أخى متحسر على ما فاتنى.. قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق.



إنـها قلـوب تحيـا بذكـر الله وتنفـق العمـر فـى رضـاه وليسـت كتلـك القلـوب التى اعتادت الذنوب ووسعت فى الدنيا آمالها وسودت أعمالهـا فلـم تشـكر خالقـها ولم تحمد رازقها..

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشآء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون * فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ (سورة يس الآيات ٤٧ : ٥٣)

فيا إلهي لولا أنك بالفضل تجود، ما كان عبدك إلى الذنـب يعـود، ولـولا محبتـك للغفران ما قابلت إساءتنا بالإحسان.. نعم يا اخوتـى فـالله خالقنـا.. ليـس بينـه وبيننـا حجـاب ولا ولي ولا وسـيط يبلغـه دعاءنـا وعبادتنـا وهـو يسـمع دعاءنـا، فيبـاهى بنـا ملائكته.. لأنهم قالوا:

"أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"

فأجابهم: "إني أعلم ما لا تعلمون".. لذلك وجب علينا أن نتوجه له وحده بالدعاء فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو سبحانه العزيز المجيد، المحيـط علمـه بكونـه، بما فيه ومن فيه، يرى الأفعال ويسمع الأقـوال، ويعـرف دقـائق الأحـوال ومـا تخفيـه النفوس، وتكنه الضمائر، وتكتمه القلوب والسرائر..





﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ (سورة المجادلة آية ٧).

وهو قريب من عباده المؤمنين وهو وحده الذي يجيب دعائهم يجيب دعاء عباده التائبين الصادقين فقط، وكيف ينتظر الإجابة أو يجد لندائه جوابا من يطلب من الله ويعبد غيره..؟

وهاهي الآية الكريمة تقول (فليستجيبوا لي). والاستجابة لله إنما تكون بطاعته، والحفاظ على شرعه. أما من يخالف ولا يستجيب فكيف يستجاب دعاؤه..؟ وهاهو الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم يضع القاعدة الأساسية ويوضح لنا أن المرء يمد يده إلى السماء ويقول: يا رب.. يا رب، وملبسه من حرام، ومطعمه من حرام، فأنى يستجاب له..؟

وكيف لا ندعوك يا ربي بعد كل هذا ونحن ما لنا قوة إلا بك وأنت الذي كرمتنا على جميع خلقك بالعقل الذي أردت أن نعرفك به وأنت سبحانك القائل في حديثك القدسي:

- يا بن آدم لا تخف من ذي سلطان مادام سلطاني باقيا.. وسلطاني لا ينفذ أبدا.
- يا ابن آدم لا تخشى من ضيق الرزق وخزائني ملآنة.. وخزائني لا تنفذ أبدا.
- يا ابن آدم لا تطلب غيري وأنا لك.. فإن طلبتني وجدتني.. وأن فتنى فتك وفاتك الخير كله.



- يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك.. وخلقتك من أجلي.. لا تنشغل بما هو لك.. عمن أنت له.
- يا ابن آدم إن رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك.. وكنت عندى محمودا.. وإن لم ترض بما قسمته لك.. فوعزتي وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البرية.. ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك.. وكنت عندى مذموما.
- يا ابن آدم خلقت السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن.. أيعييني رغيف عيش أسوقه إليك.
- يا ابن آدم.. لم أطالبك بعمل غد.. فلا تسألني عن رزق غد.. فأنا لم أنس من عصاني.. فكيف أنس من أطاعني..
- يا بن آدم أنا لك محب.. فبحقي عليك كن لي محبا.

فما أجمل وأروع كلام ربنا، فكيف نيأس وكيف نقنط مهما بلغت أوزارنا وخطايانا، وأية خطايا تكون هذه وقد وجدت ربا رحيما يقبل التائبين فما جعل الله التوبة إلا للعصاة وما أرسل الأنبياء إلا للضالين وما جعل المغفرة إلا للمذنبين، وما سمى نفسه الغفار التواب العفو الكريم، إلا من أجل أن نخطئ فيغفر، فلنجدد استغفارنا كل لحظة ولنجدد معرفتنا به ونجدد العهد بيننا وبينه ونصل ما انقطع من الطاعة بغفلتنا فالله لا يمل دعاء الداعين.. وهو يحب السائلين الطالبين الضارعين الرافعي الأكف على بابه.. إنه غفور رحيم.

وقد دعاه يوسف الصديق عند كربه قائلا:



"يا عدتى عند كربتي، ويـا صـاحبي في غربـتي، ويـا غيـاثي عنـد شـدتي، ويـا رجائي إذا انقطعت حيلتى، اجعل لي فرجا ومخرجا".

فلله در قوم تركوا الدنيا قبل تركها، وأبعدوا قلوبـهم عـن ظلامـها، والتقطـوا أيام السلامة فغنموا، وأحبوا كلام مولاهـم فاستسـلموا لأمـره، وجعلـوا نفوسـهم طاعـة لقوله، وهجروا في طاعته لذيذ الكرى، وهربوا إليه مـن جميـع الـورى، وآثـروا طاعتـه إيثار من علم ودرى، وجعلوا الصدر لطاعته مشروح، فغدى باب فضله لهم مفتوح.

فيا إلهي.. كيف يصل الواصلون إليك..؟ وكيف يكون مقامهم بين يديك..؟ وقـد طالت أسفارنا وبين يديك مستقرنا، فبأى زاد نبلغ غايتنا.. ورضاك ربى منيتنا.

سـفرى بعيـد وزادى لـن يبلغنـي ... وقوتـي ضعفـت والمـوت يطلبنـي

ولى بقايـا ذنـوب لسـت أعلمـها ... الله يعلمـها فـي السـر والعلـن

وأنـا الـذى أغلـق الأبـواب مجتـهدا ... علـى المعـاصى وعـين الله تنظرنـي

مـا أحلـم الله عنـى حيـث أمـهلنى ... وقـد تمـاديت فـى ذنبـى ويسـترنى

كـأننى بـين تلـك الأهـل منطرحـا ... علـى الفـراش وأيديـهم تقلبنـي

وقـد أتـوا بطبيـب قـد يعـالجنى ... ولم آر الطبيـب اليـوم ينفعنـي

واشتد نزعـى وصـار المـوت يجذبـها ... مـن كـل عـرق بـلا رفـق ولا هـون

كـأننى وحـولى مـن ينـوح ومـن ... يبكـي علـى وينعـانى ويندبنـي

وقام من كـان أحـب النـاس فـى عجـل ... نحـو المغسـل يـأتينى يغسـلنى

فجـاءنى رجـل منـهم فجردنـي ... مـن الثيـاب وأعرنـي وأفردنـي

وأودعونـي علـى الألـواح منطرحـا ... وصـار فوقـي خريـر المـاء ينظفنـي





وأسكب الماء من فوقي وغسلني ... غسلا ثلاثا ونادى الناس بالكفن
وحملوني على الأكتاف أربعة ... من الرجال وخلفي من يشيعني
وأخرجوني من الدنيا فوا أسفا ... على رحيل بلا زاد يبلغني
وقدموني إلى المحراب وانصرفوا ... خلف الإمام فصلى ثم ودعني
صلوا على صلاة لا ركوع لها ... ولا سجود لعل الله يرحمني
وأنزلوني على قبرى على مهل ... وقدموا واحدا منهم يلحدني
فكشف الثوب عن وجهي لينظرني ... فأسكب الدمع من عينيه أغرقني
وقال هلوا عليه التراب واغتنموا ... حسن الثواب من الرحمن ذى المنن
وتقاسم الأهل مالى بعد ما انصرفوا ... وصار وزر على ظهرى فأثقلنى
فلا تغرنك الدنيا وزينتها ... وانظر إلى فعلها في الأهل والوطن
يا نفس كفى عن العصيان واغتنمى ... فعلا جميلا لعل الله يرحمني
يا نفس ويحك توبى واعملى حسنا ... عسى تجزين بعد الموت بالحسن
وامنن على بعفو منك يا أملى ... فإنك أنت الرحمن ذو المنن





مع البكائين

سالت دموع العارفين، فأبحرت سفن النجاة، وضاع من أفواههم طعم الحياة، وأدركوا أن في ذلك سبيل الخلاص، فما نامت أعينهم، وما توقفت ألسنهم، فإذا هي بالذكر تحيا، وفي العبادة تفنى. فظهرت منهم نجوم أضاءت الطريق، فكانوا ينظرون إلى كل شيء يمر بهم نظرة مختلفة عمن سواهم.

ومن ذلك أنه قد ذكر أن أحد الصالحين كان يمشي ذات يوم فوجد رجلا يشوى لحما في النار.. فبكى الرجل الصالح فقال له الشواء: ما يبكيك؟ هل أنت محتاج للحم؟ فقال له الرجل الصالح: لا.. فقال له الشواء: إذا فما يبكيك؟ فقال الرجل الصالح: إنما أبكى على ابن آدم .. يدخل الحيوان النار ميتا وابن آدم يدخلها حيا.

ومن أشد الناس بكاء وأشهرهم زهدا - يزيد الرقاشي - كان إذا دخل بيته بكى، وإذا شهد جنازة بكى، وإن جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم، فقال له ابنه يوما: كم تبكي يا أبت..؟ والله لو كانت النار خلقت لك، ما زدت على هذا البكاء.

قال: ثكلتك أمك، يا بنى وهل خلقت النار إلا لى ولأصحابى، ولإخواننا من الجن والإنس، أما تقرأ يا بنى:

﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ أما تقرأ يا بنى: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ أما تقرأ يا بنى: ﴿فإذا انشقت السمآء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلآء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جآن * فبأي آلآء ربكما تكذبان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام * فبأي آلآء





رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (سورة الرحمن الآيات من ٣١: ٤٤)

فجعل يدور فى الدار، ويصرخ، ويبكى، حتى غشى عليه، فقالت أمه للفتى:

يا بنى ما أردت إلى هذا من أبيك، قال:

إنى والله إنما أردت أن أهون عليه لم أرد أن أزيده حتى يقتل نفسه.

وقالوا يوماً ليزيد الرقاشي: أما تسأم من كثرة البكاء..؟

فبكى وقال: وهل تسأم المرضع من الغذاء، والله لوددت أن أبكى بعد الدموع الدماء، وبعد الدماء الصديد، أيام الدنيا، فإنه بلغنا أن أهل النار يبكون الدماء، إذا نفذت الدموع، حتى لو أرسلت فيها السفن بحرت، فما حق امرىء أن لا يبكى على نفسه فى الدنيا وينوح عليها.

وكان يقول: ابك على نفسك قبل حين البكاء، إنما سمى نوحاً لأنه ناح عليه السلام على نفسه، يا يزيد من يصلى لك بعد..؟ أم من يصوم..؟ يا يزيد من يتضرع لك بعدك..؟ ومن يدعو..؟ يا إخوتاه ابكوا وبكوا أنفسكم، فإن لم تجدوا بكاء، فارحموا كل بكاء.

وهاهو "فتى من الأزد" يسمع آيات الله (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مال الظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)

فيصرخ فيسأل شيخه "أبا بشر" قائلاً:

أكل هذا في القيامة..؟ فيقول له الشيخ نعم والله، وما هو أكثر، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المدنف،..



فصاح الفتى إنا لله، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، واأسفاه على تفريطي في طاعتك يا سيداه، واأسفاه على تضييعي عمري في دار الدنيا،..

ثم بكى واستقبل القبلة وقال:

اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك اللهم فاقبلني على ما كان فى، واعف عما تقدم من فعلى، وأقلني عثرتي وارحمني، ومن حضرني، وتفضل علينا أجمعين بجودك يا أرحم الراحمين لك ألقيت معاقد الأيام من عنقي وإليك أنبت بجميع جوارحي صادقا لذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقتلني..

ثم غلبه التعب فسقط مغشيا عليه، فحمل بين القوم صريعا، فمكثوا يعودونه أياما ثم مات، فحضره خلق كثير يبكون عليه ويدعون له، فكان شيخه يذكره في مجلسه ويقول عنه قتيل القرآن. ورآه رجل في منامه، فقال له: ما صنعت..؟ قال: عمتني بركة مجلس صالح. ودخلت في سعة رحمة الله التى وسعت كل شيء.

فما أصدق دعاء الفتى، وما أخلصه، وهو الذي أدرك أن الله قريب.. ليس بينه وبينه حجاب.. فخشي غضبه ورجى رحمته، وطلب لقائه.

وقد كان "عامر بن عبد الله" من الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد، فإنه كان إذا صلى يتمثل إبليس له فى صورة حية، فيدخل من تحت قميصه حتى يخرج من جيبه، فما يمسه. فقيل له:

ألا تنحى الحية عنك، فقال: إنى لأستحى من الله أن أخاف سواه.. فقيل له: إن الجنة لتدرك بدون ما تصنع، فقال: والله لأجهدن.. والله لأجهدن، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن دخلت النار فلبعد جهدى، فلما احتضر، بكى.. فقيل له أتجزع من الموت



وتبكى، فقال: وما لى لا أبكى ومن أحق بذلك منى..؟ والله ما أبكى جزعا من الموت، ولا حرصا على دنياكم رغبة فيها، ولكن أبكى على ظمأ الهواجر، وقيامى ليل الشتاء.

وكان يقول: إلهى في الدنيا الهموم والأحزان، وفى الآخرة الحساب والعذاب، فأين الروح والفرج..؟

فهؤلاء الرجال علموا أنهم معروضون على ربهم، فخففوا أحمالهم، وقللوا أوزارهم، فإذا امتد الليل، وأسدل أستار ظلامه، كانوا كالنجوم يعرفون طريقهم ودليلهم فيه هو الوقوف بين يدى خالقهم، ولسانهم الذاكر كأنى به يرشد الكون عنه ويقول:

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شئ تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاص هذا الماء فى القاع هل لكم ... سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت ... أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا
يا بارئ الكون فى عز وتمكين ... وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى ... لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى
قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يرى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمين





ماذا تقول لربك غدا يا عمر؟!

ما أعجب سيرة الفاروق ذلك الحاكم الذى حاسب نفسه وعلم من حكم بعده واشتهر زهده وملأ الأرض عدله فأينا مثله وهو صاحب القول الشهير:

"ماذا تقول لربك غدا"

ذلك القول الذى جمع بين دفتيه كل معانى الخوف من الله.

ولهذا القول قصة أجدر بنا أن نسردها فى كتابنا وهى أنه قدم الأحنف بن قيس رضي الله عنه يوما على عمر رضي الله عنه يبشره بأن الله قد فتح على المسلمين فتحا عظيما فقال له عمر: أين نزلتم؟

قال: فى مكان كذا فذهب معهم حتى أتى مكان رحالهم فرأى عمر ركابهم وقد أصابها الوهن.

فقال: هلا اتقيتم الله فى ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقا؟ هلا رحمتموها؟ هلا حللتم بها فأكلت من نبات الأرض؟.

ثم انصرف راجعا وهم معه فأتى رجل فقال:

يا أمير المؤمنين، إن فلانا ظلمنى فأعدنى - أعنى - عليه فرفع عمر درته - عصاه - وضرب بها رأس الرجل وقال: تدعون عمر حتى إذا شغل فى أمر المسلمين أتيتموه وقلتم أعدنى أعدنى، فانصرف الرجل يتذمر فدعاه عمر ثانية فجاء الرجل فألقى إليه عمر بدرته وقال له: اقتص - أى اقتص منى - قال: بل ادعه لله ولاء.

قال عمر: ليس كذلك، بل تدعه إما لله وإرادة ما عنده وإما تدعه لى.





فقال الرجل: أدعه لله.

فقال عمر له: انصرف ثم رجع عمر حتى دخل منزله والقوم معه فصلى ركعتين خفيفتين ثم جلس.

فقال لنفسه: يا ابن الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاء رجل يستعديك على من ظلمه فضربته، ماذا تقول لربك غدا؟

إنه حساب النفس للنفس قبل أن يأتي زمان الحساب.. ويحين أوان العقاب، هكذا كانت سيرة الفاروق عمر معلما وزاهدا.

وهاهو عندما كان أميرا للمؤمنين يستوقفه أعرابى وهو في طريقه ويقول له:

يا عمر الخير جزيت الجنة ... أكسي بنياتي وأمهنه

وكن لنا في ذا الزمان جنه ... أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر: وإن لم أفعل يكون ماذا ؟

فقال الرجل: إذا أبا حفص لأمضينه.

فقال عمر: فإن مضيت يكون ماذا؟

فقال الرجل:

والله عنهن لتسألنه ... يوم تكون الأعطيات منه

وموقف المسؤول بينهن ... إما إلي نار وإما إلي جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته وابتلت، ثم قال لغلامه: يا غلام.. أعطه قميصى هذا لذلك اليوم، لا لشعره. والله لا أملك غيره.





وهاهو عمر بن الخطاب الذى ظل يحاسب نفسه طوال حياته كان يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم.

تزينوا للعرض الأكبر "يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافيه" ورأى عبد الله بن عامر عمرا رضي الله عنه ذات يوم يقول وقد أخذ تبنا من الأرض: ليتنى كنت هذه التبنة، ليتنى لم أخلق، ليت أمى لم تلدنى، ليتنى لم أك شيئا، ليتنى كنت نسيا منسيا رضي الله عنه.

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا	بين الرعية عطلا وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الروح مشتملا	ببردة كاد طول العهد يبليها
رآه مستغرقا فى نومه فرأى	فيه الجلالة فى أسمى معانيها
وحسبه بملوك الفرس أن لها	سورا من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق، أصبحت مثلا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو	فنمت نوم قرير العين هانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها	بفضل ربك حصنا من أعاديها

وها هو موقفه يوم أن مات إبراهيم بن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستة عشر شهرا فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له وهو يعالج سكرات الموت:

"يا إبراهيم أنا لا أملك لك من الله شيئا".





وأتى النبى ﷺ موضع الدفن فوضـع ولـده تحـت أطبـاق الـتراب وقـال لـه" يـا إبراهيم إذا جاءتك الملائكة فقل لهم الله ربى ورسوله أبى والإسلام دينـى" فسـمع النبـى ﷺ صوت بكاء من خلفه فنظر فإذا هو عمر ﷺ فقال له الرسول ﷺ:

"ما يبكيك يا عمر"

قال: يا رسول الله ابنك لم يبلغ الحلم ولم يجر عليه القلم وليس فـى حاجـة إلى تلقين فماذا يفعل ابن الخطاب وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم ولا يجد ملقنـا مثلـك يـا رسول الله؟ وإذا بالإجابة تنزل من فوق سبع سماوات بقول الله تعالى:

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة ويضـل الله الظالمين ويفعل الله ما يشآء﴾. (سورة إبراهيم الآية ٢٧)

وها نحن نرى عمر الخليفة الزاهد يوم أرسل أمير إقليم أذربيجان إليه بهديـة مع مندوب له فقدم المندوب المدينة ليلا فلم يشأ أن يقلقه فى بيته فأراد أن يقضـى ليلتـه فى مسجد رسول الله ﷺ حتى يؤذن للفجر فيلقى عمر فى الصلاة فيحدثه بما جـاء مـن أجله. وبينما هو فى المسجد فى جوف الليل إذ سمـع صوتـا فيـه التضـرع والزلـة لله عـز وجل: يا رب أنا واقف ببابك أقبلت توبتى فأهنئ نفسى أم رددتها علـى فـأعزى نفسـى فقال المندوب:

من أنت يرحمك الله؟ فقال له: أنا عمر بن الخطاب.

فأخذت الرجل الدهشة فقـال: إننـى لم أشـأ أن أذهـب إلى بيتـك حتـى لا أقلـق مضجعك وأنت هنا يقظ!!





فقال له عمر: يرحمك الله إننى إن نمت الليل كله أضعت نفسى أمام ربى وإن نمت النهار كله أضعت رعيتى.

وبعد أن صليا الفجر ذهب عمر ومعه الرجل إلى بيته وطلب طعاما للضيف فلم يكن بالبيت سوى خبز وملح فأكلا ثم سأل عمر الرجل قائلا: فيم جئتنا؟

فقال له المندوب: إن الأمير أرسلنى بهذه الهدية إليك فقال له افتح الهدية ففتحها فإذا بها علبة بها حلوى وقال الرجل: لقد جئتك بهذه الحلوى من أمير الإقليم إليك أنت وهى حلوى لا تصنع إلا هناك.

فسأله عمر: أكل المسلمين أعطيتهم هكذا؟

فعجب الرجل وقال: إنها صناعة مخصوصة لك أنت يا أمير المؤمنين.

وإذا بعمر يغضب من قول الرجل ويقول له: ارجع إلى صاحبك وقل له: لو عدت إلى هذا العمل مرة أخرى لأنزلت بك قاصمة تقطع عظام ظهرك. اذهب بهذه الحلوى إلى فقراء المسلمين فى المسجد وقسمها عليهم فحرام على بطن عمر أن يذوق حلوى لا يأكل منها فقراء المسلمين.

إن جاع فى شدة قوم شركتهمو	فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول لفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجته الحلوى فقال لها	من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به	أولى، فقومى لبيت المال رديها





وخرج عمر من المسجد يوما ومعه "الجارود" فإذا امرأة عجوز واقفة على الطريق فسلم عليها فردت عليه وسلمت عليه فرد عليها فقالت: هيه يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميرا فى سوق عكاظ تصارع الصبيان فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله فى الرعية واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت فبكى عمر رضي الله عنه.

فقال لها الجارود: هيه لقد تجرأت على أمير المؤمنين وأبكيته. فقال عمر: دعها.. أما تعرف من هذه؟ هذه خولة بنت ثعلبة التى سمع الله قولها من فوق سماواته فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها.

يا من يجيب دعا المضطر فى الظلم	ويكشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما عملوا	فمن يجود على العاصين بالكرم
أصبحت ضيف الله فى دار الرضا	وعلى الكريم كرامة الضيفان
تعفو الملوك عن النزيل بساحهم	كيف النزول بساحة الرحمن
يا من إذا وقف المسىء ببابه	ستر القبيح وجاد بالإحسان
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى	تغفو وتصفح للعبيد الجانى





حاسبت نفسي لم أجد لى صالحاً ... إلا رجائى رحمة الرحمن

ووزنت أعمالى علىَّ فلم أجد ... فى الأمر إلا خفة الميزان

وظلمت نفسي فى فعالى كلها ... ويلى إذاً من وقفة الديَّان

يا أيها الإخوان إنى زائل ... مهما يطل من عمرى فإنى فان

يا رب إن لم ترض إلا ذا تقى ... من للمسىء المذنب الحيران

نوح الحمام ينوح من ألم النوى ... وأنا أنوح مخافة الديان

يا واحداً فى ملكه ما له ثانى ... يا من إذا قلت يا مولاى لبانى

أنسى فتذكرنى فى كل نائبة ... فكيف أنساك يا من لست تنسانى

أنا إن بكيت فلن ألامَ على البكى ... فلطالما استغرقت فى العصيان

يا رب عبدك من عذابك مشفق ... بك مستجير من لظى النيران

فارحم تضرعه إليك وضعفه ... وامنن عليه اليوم بالغفران



المرأة العابدة

ومن النساء من شغلتهم الآخرة عن الدنيا فتركوا متاعها وزينتها وأغمضوا العيون عن فتنتها، وعاشوا حياتهم ينتظرون لقاء الله قائمين الليل، صائمين النهار، نافسوا الرجال في العبادة، ويا له من ميدان الخير فيه زيادة، فكانت منهن العابدات.. الزاهدات.. القانتات.. التائبات.. البائعات للدنيا.. المقبلات على الآخرة..، فحارت في زهدن العقول، وتعجب منهن أولى الألباب، لما رأوا من عجائب العبادة، ومن أشهر هؤلاء النساء "عفيرة" العابدة التي اشتهرت بزهدها في الدنيا، حتى عميت من كثرة البكاء، وفي أحد الأيام سمعت من يقول عنها:

(ما أشد العمى على من كان بصيرا).. فقالت له:

يا عبد الله، عمى القلب عن الله أشد والله من عمى العين عن الدنيا..!

والله وددت لو أن الله وهب لي كنه محبته، وأنه لم تبق مني جارحة إلا أخذها..!

وقال لها رواح بن "سلمة الوراق" يوما: بلغني أنك لا تنامين الليل.؟

فبكت، ثم قالت: ربما اشتهيت أن أنام، فلا أقدر عليه، وكيف ينام أو يقدر على النوم، من لا ينام عنه حافظاه ليلا ولا نهارا..؟!

قال: فأبكتني والله، وقلت في نفسي: أراني في شيء وأراك في كل شيء..!

وقيل لها يوما: أما تسأمين من طول البكاء؟

فبكت، ثم قالت: كيف يسأم ذو داء من شيء يرجو لو أن فيه من دائه شفاء؟!.

وقال محمد بن عبيد: دخلنا على عفيرة فقيل لها: يا عفيرة ادعي الله لنا.





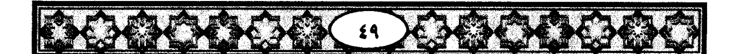
فقالت: لو خرس الخاطئون ما تكلمت عجوزكم، ولكن المحسن أمر المسيء بالدعاء، جعل الله قراكم من بيتي الجنة، وجعل الموت مني ومنكم على بال.

وقال يحيى بن راشد: كنا عند عفيرة العابدة فقدم ابن أخ لها كانت طالت غيبته، فبشرت به، فبكت..!

فقيل لها: ما هذا البكاء؟ اليوم يوم فرح وسرور، فازدادت بكاء، ثم قالت: والله ما أجد للسرور في قلبي مسكنا مع ذكر الآخرة، ولقد ذكرني قدومه يوم القدوم على الله، فمن بين مسرور ومثبور - هالك - ثم غشي عليها.

وهذه الحالات لا تكون إلا في حالة حياة القلوب وصفاء النفوس ونقاء الضمائر وصفاء البصائر،

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنآ ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار * ربنآ إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار * ربنآ إننآ سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ (سورة آل عمران الآيات ١٩١: ١٩٥)





وقد كانت "حبيبة العدوية" إذا صلت العتمة، قامت على سطح البيت فشدت عليها درعها وخمارها، وبقيت تذكر ربها قائلة:

إلهي، غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وبابك مفتوح، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك..!

وتبقى تتعبد حتى السحر ثم تقول:

اللهم وهذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى هل قبلت منى ليلتى فأهنى، أم رددتها على فأعزى..؟

وكانت "بردة" العابدة تدعو بدعاء قريب من هذا فتقول: هدأت العيون، وغارت النجوم، وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك يا محبوبى، أفتراك تعذبنى وحبك في قلبي؟! لا تفعل يا حبيباه.

أيا من كلما نودى أجابا	ومن بجلاله ينشى السحابا
وكلم فى الدجى موسى بلطف	كلاما ثم ألهمه الخطابا
ويا من رد يوسف بعد بعد	وكان أبوه ينتحب انتحابا
ويا من خص أحمد واصطفاه	وأعطاه الرسالة والكتابا
وقربه وسماه حبيبا	وأعتق من شفاعته الرقابا
لك الفضل المبين على عطاء	مننت به وضاعفت الثوابا
أيا من جل عن كيف وأين	وعن ند وعن ولد ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع	ولانت من مخافتك الجلامد





أذنـــت لهـــا تكـــون فاســـتكانت	وأنــت علــى جميــع الخلــق شــاهد
وكنـــت بحيـــث أكـــون عـــون	وحاشــا أن تحيـــط بـــك المعـــاهد
وأنـت بحيـث أنـت وليـــس أيـــن	ولا كيـــف تمثلـــــه الشـــواهد
أحطـــت بجملـــة الأشـــياء علمـــا	وأنـــت لكـــل مـــا فيـــها مراصـــد
ويـــا مـــن مـــا لـــه فـــي الملـــك ثـــان	ولا مثـــل وليـــس لـــه معـــاضد
فقـــد عودتنـــا الإحســـان لطفـــا	وصعـــب عندنـــا قطـــع العوايـــد
حاسـبت نفســـي لم أجـــد صالحـــا	إلا رجـــائي رحمـــة الرحمـــن
ووزنـــت أعمـــالي علـــى فلـــم أجـــد	فـــي الأمـــر إلا خفـــة المـــيزان
وظلمـــت نفسـي فـــي فعـــال كلـــها	ويحـــي ـ إذن ـ مـــن وقفـــة الديـــان
يـــا أيـــها الإخـــوان! إنـــي راحـــل	مـــهما يطـــل عمـــري فـــإني فـــان
يـــا رب: إن لم تـــرض إلا ذا تقـــي	مـــن للمســـيء المذنـــب الحـــيران؟؟

وهذه "أم عثمان بنت سودة الطفاوي" كانت من العابدات، وكانوا يقولـون لهـا يـا راهبة، وفي مرضها الأخير عندما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء باكية تناجي ربـها فقالت:

يا ذخري وذخيرتي، ويا من عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري.

قال ولدها عثمان: فلما ماتت كنت آتيها في كل جمعـة فـأدعو لهـا وأستغفر لهـا ولأهل القبور، فرأيتها ذات ليلة في منامي فقلت: يا أماه كيف أنت؟



قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة، وأنا بحمد الله لفي برزخ محمود، نفترش فيه الريحان ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور.

فقلت: ألك حاجة؟

قالت: نعم، لا تدع ما أنت عليه من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من عند أهلك، يقال لي: يا راهبة هذا ابنك قد أقبل من أهله زائرا لك، فأسر بذلك ويسر بذلك من حولي من الأموات..!

وهاهي "شعوانة" العابدة تقول:

من استطاع منكم أن يبكي، فليبك، وإلا فليرحم الباكي، فإن الباكي إنما يبكي لمعرفته بما أتى إلى نفسه..! وكانت تشدو بهذين البيتين:

يؤمل دنيا لتبقى له   فوافى المنية قبل الأمل

حثيثا يروي أصول الفسيل   فعاش الفسيل ومات الرجل

وهاهي امرأة تتعثر في صخرة فينقطع ظفرها فتضحك..!

فقيل لها: سقط ظفرك وتضحكين؟

فقالت: والله إن حلاوة ثوابه، أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

ومن هؤلاء النساء اللاتي تعلقت قلوبهن بالآخرة عابدة عاشت في زمن الحسن البصري يقال لها: منية، وقد رزقها الله ابنة أشد عبادة منها.

فكان الحسن البصري يتعجب من شدة عبادتها وكثرة زهدها، رغم حداثة سنها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ آتاه آت فقال له:

أما علمت أن ابنة "منية" العابدة قد نزل بها الموت..؟





فوثب الحسن فدخل عليها، فلما نظرت الجارية إليه بكت.

فقال: ما يبكيك..؟

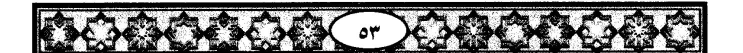
قالت: يا أبا سعيد، التراب يحثى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي..! يا أبا سعيد انظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لها قبرا واسعا وكفنها بكفن حسن.. والله لو كنت أجهز إلى مكة لطال بكائي، كيف وأنا أجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظلمة والدود..؟

فيا لها من كلمات تخرج من قلب محب للقاء الله راجيا فضله ورضاه، فأين نحن منها..؟ وقد ضيعنا الباقية بالفانية وهزمنا أنفسنا أمام شهواتنا وأقبلنا على الحياة إقبال من لا يخشى الموت وهو أقرب لنا من نفس قادم لنتنفسه.

يا نائم الليل متى ترقد ... قم يا حبيبي قد دنا الموعد

من نام حتى ينقضي ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد

فقل لذوي الألباب أهل التقى ... قنطرة العرض لكم موعد



وقفة مع النفس

فما آن لنا أن نفيق وما آن لنا أن ننتبه ونتوقف وقفة أخيرة مع أنفسنا، نراجع فيها ما مضى من حياتنا، ونحصي أعمالنا قبل أن تحصى علينا وليقل كل منا لنفسه:

إذا أنا مت الآن فهل سأجد الله راضيا عني..؟

يا لها من لحظة صعبة يقفها الإنسان مع نفسه كيف لا..؟! وكثير منا مازال لم يستشعر قرب الموت، ولم يدرك أن العمر لحظات معدودة، قد تكون مرت بالفعل وحسابه بعد ثوان.. فالقبر أخطر قضية ينتظرها الإنسان، القبر قضية كيان، وأخطر ما فيه أنه لابد داخله مهما طال الزمان، ولابد معروض على الواحد الديان، ففرس الرحيل مسرج، وإلى بوادي القبور المخرج، فأي مطمئن لم يزعج، فما أضيق ما نحن قادمون عليه، وما أقرب ما نحن نازلون إليه، فماذا نقول لربنا إذا أتي علينا الغد المنتظر..؟

فوالله لو رأينا الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم حفاة عراة، مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسامهم ينادون: يا ويلنا.. يا ثبورنا.. ماذا نزل بنا؟ ماذا حل بنا؟ وماذا يراد منا..؟

وملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم يسوقونهم بمقامع من نار، فمرة يجرونهم على وجوههم، ومرة يسحبونهم على منكبين، ومرة يقادون إلى النار مقرنين، من بين باك دما بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ فزع القلب مبهوت..





وهناك على مد البصر بجنات ربي قـد ظفـر، قـوم أدركـوا أن في الغـد حسـاب، وثواب وعقاب، وأن الدنيا دار عمل، فلم يطيلوا فيها الأمل، ولم يغرهم طول الأجـل، فألقوها خلف ظهورهم، وقاموا يبتغون رضى ربهم، فها هم الآن منعمـون، وبالجنـة يغنمون، كما قال رب العزة:

﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد اللـه يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكـم جـزآء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليـلا * ويطـاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروهـا تقديـرا * ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليـهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكـا كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربـهم شرابا طهورا * إن هـذا كان لكم جزآء وكان سعيكم مشكورا﴾

(سورة الإنسان الآيات من ٥ : ٢٢).





بحر المعاصي

والآن ماذا نفعل والموت لابد آت لا مفر منه..؟، يدخل كل البيوت ولا يستأذن أحد، فهيا بنا لا تتردد.. هيا لكى نحمل ذنوبنا ونتعلق بذلك الخيط الرفيع المتبقي لنا من الأمل، ونلقيها في بحر الرجاء باكين متضرعين نادمين، لعل الله ينظر إلينا بعيني رحمته، فيعفو عنا ويتجاوز عن زلاتنا وخطايانا.. فهو أكرم من أن يردنا خائبين..

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾

(سورة إبراهيم الآيات من ٤٨ :٥٢)

وقد أدرك الإمام الشافعى ما تفعله الذنوب من إطفاء نور القلوب، وأن العلم نور من الله، لا يهبه للعصاه فأنشد يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى — فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأوصانى بأن العلم نور — ونور الله لا يؤتاه لعاصى





فيا ربى.. ماذا نقول.. وقد عصيناك.. ولولا علمنا بعفوك.. ما أتيناك.. أنت كتبت على نفسك الرحمة.. فلا تنسانا.. فنحن الضعفاء وأنت القوى.. ونحن الأزلاء.. وأنت العلى.. فكيف نعتذر إليك.. وما لنا عذر..

ما اعتذارى، وأمر ربى عصيت — حين تبدى صحائفى ما أتيت
ما اعتذارى إذا وقفت ذليلا — قد نهانى وما أرانى انتهيت
يا غنيا عن العباد جميعا — وعليما بكل ما قد سعيت
ليس لى حجة ولا لى عذر — فاعف عن زلتى وما قد جنيت
يا رب أنت أمرتنى ونهيتنى — وأريتنى طرق الضلالة والهدى
وعلمت أنى لا أفر من الذى — قدرت لى.. إن كان خيرا أو ردى
وسلكت بى ما شئت للشىء الذى — فى الخلق ما أخفيته عنهم سدى
فاقبل بفضلك توبتى لك مخلصا — وارحم فإنى قد بسطت لك اليدا
واصفح عن العبد الذى يا سيدى — قد جاء معترفا وعاش موحدا





الكارثة الكبرى

لذلك فإن أكبر كارثة تصيب الإنسان هي أن ينظر إلى ذنوبه على أنها صغيرة وأن العمر أمامه طويل لكي يفعل من الحسنات ما يمحو أخطائه..ذلك موطن الخطر، نعم موطن الخطر هو أن يستصغر الإنسان ذنوبه لذلك فقد صرخ التابعي الجليل "أويس بن عامر" قائلا: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصية)..

ويالها من صرخة تهز القلوب فمن عصينا..؟ لقد عصينا جبار السماوات والأرض، عصينا ملك الملك والملكوت، الحي الذي لا يموت، من ذلت له الوجوه، وانحنت له الجباه، عصينا منزل القرآن، من لو أنزل قرآنه على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشيته سبحانه، فأى ذنب بعد هذا يستوجب علينا الندم والاستغفار والبكاء خشيتا وخجلا من أن يرانا ونحن نعصاه مهما صغر الذنب في أعيننا.. ألا تتساقط لحوم وجوهنا خجلا..! وكيف لا وقد عصينا من لا يغفل ولا ينام عصيناه في أرضه وسمائه، فأين نهرب منه..؟

ومن فضل رحمته علينا سبحانه وتعالى أنه خلق الرحمة، ليتراحم بها عباده، ولأنه خلقها فقد رضي لنفسه أن يكون أرحم الراحمين..

وأي صفة يتصف بها الخالق أفضل من تلك الصفة..! فيا ربي ما أعظمك.. وما أكرمك.. وما أرحمك.. إن نعمك سابغة علينا فالحمد لك يا رب.. أنت الذي أنشأت الحمد لكي نحمدك على ما أوليته لنا من عطائك الذي لا ينفد.. فهذه رحمتك التى وسعت كل شيء.. فنحن شيء فارحمنا في الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين..





فيا أخي المسلم استعد للقاء الله، ولا تشغلك مفاتن الحياة، واصبر عليها، فحياتنا ابتلاء واختبار، وثبات وانهيار، وعسر ويسر، وشدة ورخاء، ورضاء بالقضاء، وصبر وجزع، وأمن وفزع..

فتلك سُنة الوجود وحكمة الحي الموجود في خلقه أرادها لنا اختباراً ومحنة، ليعلم الطائعين من عباده من المفسدين، ويحاسبنا يوم وقفتنا بين يديه على ما قدمنا، ويكافئنا على ما تحملنا في سبيله من صبر على بلائه، فالصبر صمام الأمن ووقاء النفس من التدهور والانزلاق في مهاوى اليأس وظلام القنوط ..

﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف الآية ٨٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيّ الْحَمِيدُ﴾ (سورة الشورى الآية ٢٨)

﴿قُلْ يَعِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىَ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رّحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ ﴾ (سورة الزمر الآية ٥٣)

وقال رسول الله ﷺ: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله" رواه مسلم

فلولا عفوك يا رحمن ما سكنت الجنان، فانظر إلينا نظرة واحدة، وأثبتنا فى ديوان أهل الصفا، ونجنا من ديوان أهل الجفا، اللهم حقق بالرجاء آمالنا، وحسن فى





جميع الأحوال أعمالنا، وسهل في بلوغ رضاك سبلنا، خذ إلى الخيرات بنواصينا، فمن غيرك يا إلهي ينجينا..؟

فرضاك عنا هو بارقة الأمل في دنيا اليأس، وإشراقة النور في محيط الظلام. فمهما اشتدت الأمور وتلاحقت الخطوب، وتلاصقت المصائب والأحداث، وصغرت الدنيا في أعيننا، وضاقت صدورنا، فلا يعصمنا إلا الصبر ولا يسندنا إلا الثبات، وسرعان ما تنجلي الأيام عن فجرٍ جديد وتنحسر موجة اليأس ونصل بالصبر إلى بر الأمان، لذلك فإننا إذا استمسكنا بالصبر على دنيانا وجعلنا لقاء الله نَصب أعيننا وأدركنا أن الله قد خلقنا في هذه الدنيا لنعمرها بطاعته ولا نعبد سواه وأن الدنيا ما هي إلا كدٌ وتعب وأن الآخرة هي جزاء الصابرين.. وكما سُئل الإمام احمد بن حنبل:

متى يجد العبد طعم الراحة..؟

فقال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

فما أروع الصبر والصابرين، فهو فضيلة لا تعرفها القلوب الضعيفة الواجفة، الهلعة الهشة، اليائسة القانطة، ولا تعمر إلا القلوب الكبيرة المؤمنة، القلوب التى إذا مسها خوف أو أصابتها مصيبة تلوذ بخالقها سبحانه وتُلجئ الأمر إليه وتلجأ بالدعاء وتهتف إنا لله وإنا إليه راجعون، وهو تفويض مطلق وتسليم شامل لإرادته واعتراف كامل بأن الأمر كله إليه فقد أدركت حقيقة الأمر وفلسفة الكون الكبرى أنه "لا ملجأ من الله إلا إليه" ولا ملاذ من بطشه إلا رجاء رحمته.





﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذآ أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنآ إليه راجعون * أولـئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولـئك هم المهتدون﴾

(سورة البقرة الآيات ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨)

فإذا ما نزلت بالمرء ضائقة، أو مسه مكروه، أو أصابه شر أو ضر فزع إلى ربه وتضرع إلى خالقه، ليكشف ما به من غمة ويزيل ما أصابه ويدفع عنه المكروه..، ولكن كيف يدعو خالقه..؟

إذا استطعت أن يسبق دمع الطاعة طلب المغفرة،أن تبتهل خاشعا خاضعا، تحس بضعفك الإنساني، تطلق عنان توبتك لتبلغ أرجاء السماء تدرك حاجتك إلى معونة القوي القاهر القادر، تتجه بعواطفك وبكل كيانك إلى ملاذ مولاك راجيا داعيا تائبا مستغفرا سائلا..

هنا وفي تلك اللحظات فقط تتصل بربك ومعبودك الحي القيوم، تتصل بالقوة الكبرى.. بالنور الأعظم.. بالرحمة الكلية.. بالكريم.. فيمتلئ صدرك بالعزة، فلا عزة لنا إلا بربنا، وحينما نشعر بعزتنا عزة الإيمان في قلوبنا، سيصغر عندنا كل ما هو دون خالقنا، فلا معبود غيره، ولا سيد سواه، وينطلق اللسان: الآن الآن يا ربي أدركت أنه قد فاتني الكثير وأدركت أنه لابد لي من وقفة بين يديك، يصغر أمامها الكون كله، لا أهل ساعتها ولا مال ولا ولد، لا جاه ولا سلطان، لاشيء إلا الرجاء والحياء وجبال الذنوب، لم أعد أحصيها، ودموع كأنهار الأرض تجري، ولا يوقفها





إلا رضاك، فتجاوز عن إساءتى وجهلي، وارحم زلتى بين يديك، ولا تُسلمني لعملي فأهلك، ولكن أسلمنى يا ربى لرحمتك، ولا تعاملني يا إلهي بما أنا أهلٌ له، ولكن عاملني بما أنت أهلٌ له، فأنت حكمت فعدلت فجعلت ميزان عدلك رحمتك، وقلبي بين يديك تقلبه كيفما شئت، فثبته يا إلهي على ما يرضيك ويُنجيني واجعل يا إلهي قبضة قبري يدي رحمتك، فأنت صاحب العفو والجود والكرم يا أرحم الراحمين.





المراجع والمصادر

١) القرآن الكريم

٢) الكبائر: للإمام شمس الدين الذهبى.

٣) الرقة والبكاء: لشيخ الإسلام ابن قدامة المقدسى.

٤) المستطرف فى كل أمر مستظرف.

٥) الدعاء فى القرآن: د./ محمود بن الشريف.

٦) العقد الفريد: لابن عبد ربه.

٧) حياة الصحابة: للكندهلوى.

٨) ١٥٠ موقف لعمر بن الخطاب: إبراهيم الأشقر.

٩) صفة الصفوة: للجوزى.

١٠) هيا بنا نؤمن ساعة: سعيد عبد العظيم.

١١) عصر التابعين: عبد المنعم الهاشمى.

١٢) طهارة القلوب: للإمام عبد العزيز الديرينى.





الفهرس

